



الجغرافيون والرحالة المسلمون

للمستشرق : م. ف. مينورسكي
ترجمة : أ. د. عبدالرحمن حميده

يناير ١٩٨٥م
ربيع الثاني ١٤٠٥هـ

٧٣

نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الجغرافيون والرحالة المسلمون

للمستشرق : م . ف . مينورسكي
ترجمة : ا . د . عبد الرحمن حميده

جميع الآراء الواردة في هذه النشرة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الجمعية الجغرافية الكويتية

جمعية علمية تهدف إلى النهوض بالدراسات والبحوث الجغرافية وتوثيق الروابط بين المشتغلين في المجالات الجغرافية في داخل الكويت وخارجها

الاشتراكات :

في الكويت :	للمؤسسات	١٢ دينارًا كويتيًا (سنويًا)
	للأفراد	٦ دينارًا كويتيًا (سنويًا)
خارج الكويت :	للمؤسسات	١٥ دينارًا كويتيًا (سنويًا)
	للأفراد	٧,٥ دينارًا كويتيًا (سنويًا)

المراسلات : الجمعية الجغرافية الكويتية - ص ب ١٧٠٥١ - الخالدية - الكويت

نبذة عن الكاتب

أ . د. عبد الرحمن حميدة

رئيس قسم الجغرافيا بجامعة دمشق سابقا

وحالياً أستاذ في قسم الجغرافيا بنفس الجامعة

من أبحاثه وتحقيقاته

- أعلام الجغرافيين العرب . دار الفكر ، دمشق ١٩٨٣ .
- وصف افريقيا للحسن الوزان . اصدار خاص بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ـ الرياض ١٩٧٧ .

الجغرافيون والرحالة المسلمون[1]

المستشرق م . ڤ مينورسكي M.V. Minorsky
الأستاذ في جامعة لندن
ترجمة د . عبد الرحمن حميدة

المحاضرة الأولى

لقد كانت مساهمة العرب ـ والمسلمون عموماً ـ على قدر عظيم من الأهمية في مجال علم الجغرافيا . وكثيراً ما تتردد عبارة على أقلام الكثير من الباحثين الأجانب ، وهي قول لا يخلو من غرض ، بأن العرب قاموا بسدّ الثغرة العلمية بين بطليموس الإسكندري[2] وبين ماركو بولو[3] . وإذا تفحصنا هذا الزعم على ظاهره ، وجدناه لا ينصف إطلاقاً ما أنجزه المسلمون خلال سبعة قرون من الزمن .

والواقع لم يقدم العالم الاسكندري المذكور أكثر من جدول لدرجات الطول والعرض ، في حين ظل الرحالة البندقي الكبير معتمداً على سماع الروايات وعلى الممايزة بين الحقيقة وبين الأساطير ، على الرغم من القدر المذهل من الملاحظات الصحيحة والممتعة ، بينما كانت المساهمة العربية في الدراسات الجغرافية أكثر تنوعاً ومتانة وعمقاً ، بما لا يرقى إليه قياس ، من كتابات بطليموس وماركو بولو .

ويروى أن أول تقدم حظيت به الدراسات الجغرافية كان على يد عالم هندي حمل الى بغداد في عام ١١٧هـ / ٧٧٢م أول وصف للكون ، كوزموغرافيا ، وهو كتاب السيد هنتا Siddhanta .

وقد أثارت شروح هذا الحكيم الهندي الفضول العلمي لدى الخليفة أبي جعفر المنصور فأصدر أمراً بترجمته الى العربية .

وقد طرأ التحريف ، فيما بعد ، على السيد هنتا ، فأصبح السند هند ، وهو لفظ أيسر نطقاً على المتكلمين بالعربية ، وربما يعود لهذه الترجمة السبب في جعل أوائل الجغرافيين المسلمين يتخذون خط الطول الصفر أو (المبدئي) ابتداءً من مدينة أجين Ujjayn في الهند . وأصبحت أجين ، بعد النقل الى العربية ، أزين Uzzayn ، و على أثر خلط ميسور ومحتمل جداً في الحروف العربية انقلب الزاي راءً . وهكذا نلاحظ أن العالم الإنجليزي الشهير آبيلار الباثي Abelard de Bath قد تكلم ، بعد أن قام بترجمة مؤلف عربي الى اللاتينية ، عن مركز العالم المدعو الأرين[٤] . ومنذ مائة سنة خلت استطاع العالم الفرنسي رينو Reinaud أن يحدد أصل هذا الأرين من كلمة أزّين (أي الأجين) وأن يرسمه في بحثه الرائع عن الجغرافيين العرب ، والذي لا يزال يحتفظ حتى اليوم بكل قيمته (هذا على الرغم من ظهور مؤلف المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشوفسكي « تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب »[٥] وكتاب « جغرافية بلاد الإسلام » تأليف المستشرق الفرنسي الكبير آندريه ميكل »[٦] .

وعلى كل حال كان التأثير الأقوى والسائد في فجر عصر الجغرافيا الإسلامية ، هو تأثير جغرافية بطليموس . ففي خلال القرن التاسع الميلادي تمت ترجمة المجسطي بضع مرات الى اللغة العربية . ولكن تظهر كتابات بطليموس ، وذلك حتى في أقدم الترجمات التى نجدها مندمجة في كتاب « صورة الأرض » لمحمد الخوارزمي ، أقول تظهر هذه الكتابات وقد طرأ عليها بعض التعديل مع إضافات ، لأن العرب هم الذين كشفوا الوقائع الجديدة وأبرزوها الى النور . وهكذا ، وعلى سبيل المثال ، تحولت عبارة جرمانيا القديمة الى بلاد الصقالبة « السلاف » كما تم تحديد المنطقتين اللتين تحملان اسم سرماتيا[٧] بمنطقتين : الأولى دعيت باسم بلاد البلغار على نهر الدانوب ، والأخرى ببلاد اللرّن في قفقاسيا ، هذا في حين تخلّت منطقتا شيثيا Seythie عن مدلوليهما كي تحمل في المؤلفات العربية اسم بلاد الترك . وهكذا نتعرف على البدائل التي أتى بها العلماء العرب لمتابعة سير الأحداث .

وقد تمت دراسة الترجمة العربية لـ « جغرافية بطليموس » بتفصيل كبير بجهود المستشرق الإيطالي الكبير آ . نلّلينو Nellino ، الذي كان له دور ثقافي كبير في الجامعة المصرية خلال الأربعينات ، ومن ثم على يد العالم النمساوي ڤون مزيك Von Mzik الذي أدى خدمات جلّى في ميدان الدراسات الجغرافية .

هذا ولا يزال من الممكن التعرف على التأثير البطليموسي ، وإن كان ذلك بدرجة متناقصة على الدوام ، من خلال قوائم درجات الطول والعرض ، أو الزيج ، باللغة العربية ، في مؤلفات البتاني المتوفي في عام ٩٢٩م والبيروني « القرن الحادي عشر - وأبي الفداء « القرن الرابع عشر » وأولوغ بك « القرن الخامس عشر » ولدى صادق الأصفهاني « القرن السابع عشر » وكذلك فيما بعد حتى مطلع القرن التاسع عشر .

ولكن يظل النمط المميز في الجغرافيا العربية هو مجموعة الكتب التي تحمل عنوان « المسالك والممالك » والتي تقابلها في اللغة اليونانية تسميته كوزموغرافيا أكثر من عبارة « جغرافي »[٨] .

وتعالج هذه المجموعة من الكتب على الخصوص ، مواضيع سياسية وعرقية واقتصادية . ولم يبق لقياسات درجات الطول والعرض ، في الوقت الحاضر ، أكثر من قيمة تاريخية ، لا سيما بالنسبة لخطوط الطول والتي كانت عرضة للخطأ لأنها كانت تحسب استناداً الى المسافات التي يقطعها السُفَّار بين مرحلة وأخرى .

ومن المعروف أن الرحالة لا يسلكون إطلاقاً خطاً مستقيماً ، ولا خطاً موازياً على الضبط لخط الاستواء مما كان يفسد ويعيب تحديد درجة الطول . وهذا على خلاف مؤلفات « المسالك والممالك » التي تشتمل على قدر ضخم من المعلومات الثمينة التي لا تبلى جدتها والتي تكمل الحوليات التاريخية بحيث تشكل فيها الهيكل والسدى .

وإذا استثنينا هاتين الفئتين الرئيسيتين - الأزياج والمسالك والممالك - فإن هناك تصانيف أخرى نستطيع أن نوزع ضمنها المؤلفات الجغرافية . فمثلاً يمكننا أن نميز بين المؤلفات المهتمة بوصف العالم وبين كتب المناطق الخاصة ، وبين كتب الوصف وبين كتب الاكتشافات الشخصية ، هذا على الرغم من أننا نجد هذه الكتب في معظم الحالات مكتملة بمصادر مكتوبة ، كما يمكن أخيراً أن نميز بين المؤلفين الذين كتبوا في القسم الشرقي من بلاد الخلافة ، أي خراسان بالمعنى الواسع للكلمة ، وبين المؤلفين الذين كانوا أكثر معرفة بمناطق بحر الروم ، أي البحر المتوسط ، وبين كتب الوصف الجغرافي الواقعية البحتة ، وبين الروايات الحاوية على عناصر

اسطورية وعجائبية ، شأن كتب قصص البحارة في المحيط الهندي وأندونيسيا . هذا وتستطيع أن تعالج المؤلفات الجغرافية موضوعاتها في أسلوب أدبي ، وهذا ما قام به ريجس بلاشير في مختاراته الأدبية الجغرافية[٩] .

وسنحاول التركيز ـ ضمن إطار بحثنا ـ على المؤلفات الجوهرية التي تشير الى مراحل في تقدم الدراسات الجغرافية والكوروغرافية الإسلامية . وعلى هذا الأساس سنهمل حتى بعض المؤلفات الذائعة الصيت ، في حالة كونها عبارة عن تجميع لمعلومات من مصادر شتى .

فقد كانت أرض الإسلام تمتد في عهود الخلفاء من الهند حتى شبه جزيرة ايبريا ومن نهر الفولغا شمالاً حتى نهر النيل . ولا يمكن دراسة رقعة شاسعة كهذه ووصفها إطلاقاً على يد مكتشفين فرادى ، ولا يمكن إنجاز مثل هذه المهمة إلاّ بواسطة مؤسسة مركزية معتمدة على محفوظات منظمة ، أو بواسطة فرق علماء ورحالة . ولقد تطور الإهتمام المنهاجي في الجغرافيا ، في البداية ، تحت إشراف الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) فقد قام فريق العلماء ، تحت رعايته ، بقياس خط الطول في البادية السورية قرب جبل سنجار ، ويوجد عمل كارتوغرافي يحمل عنوان الصورة المأمونية ، تحقق بفضل رعاية هذا الخليفة المستنير . ومن الممكن أن يكون ذلك أول مخطط لأطلس الإسلام الذي سنتكلم عنه بعد قليل .

ولقد تخرج من النادي المأموني مؤلف أول كتاب جغرافي مستقل كان فاتحة سلسلة المسالك والممالك فقد كان ابن خرداذبة ، الذي يشير اسمه الى أصله الفارسي ، يعيش في بغداد . وكان مدير البُرُد الخليفية ، أي صاحب البريد . وقد دبج كتابه في عام ٨٤٦م وتمت مراجعته بعد أربعين عاماً . ولا يبدو على أي جغرافي ، جاء من بعد ابن خرداذبة ، أنه استطاع أن يتخلص من تأثيره ، ولكننا لا نملك عن الكتاب الأصلي سوى الملخص .

ففي هذا النص يعود المقام الأول لسرد مستفيض كامل لمحطات البريد والمسافات بين بلاد الخلافة ، من طرف لآخر ، وإذا كان ملخّص ابن خرداذبة يتألف من ١٥٧ صفحة فإن ثلاثين صفحة منها فقط احتفظت لنا بمعلومات عامة استقاها ابن خرداذبة عن المناطق النائية ، كوصف التقسيمات الإدارية البيزنطية

themes الذي أقر بأهميتها كل الإقرار العالم جلزر المختص بالتاريخ البيزنطي ، أو تعداد أسماء الملوك الصغار التابعين للساسانيين ، وكذلك ألقاب ملوك الأتراك القدامى . وتؤلف مثل هذه التفاصيل أساساً لا يقدر بثمن مما يجعلنا نتحسر لعدم وصول النص الكامل إلينا . وقد استطعنا شيئاً فشيئاً تشخيص المصادر التي اعتمد ابن خرداذبة عليها وأن نتعرف على قيمتها السامية . وقد أمكن منذ عهد قريب التعرف على التقرير الذي استمد منه ابن خرداذبة معلوماته عن آسيا الوسطى والذي أنجزه رحالة يدعى تميم بن بحر الذي توغل في سنة ٨٢٠م حتى بلاد جمهورية منغوليا الشعبية الحالية .

ويعود أول وصف لبلاد الخلافة لنهاية القرن التاسع الميلادي على يدي أحد أكثر مؤرخي بلاد الإسلام بريقاً وهو اليعقوبي الذي كان شخصياً على اتصالات مباشرة مع بلاد خراسان وأرمينيا والذي كان يعرف البلاد المذكورة بصورة تدعو للإعجاب .

وهناك مؤلف آخر كان يتمتع بوضع متميز من أجل القيام بتحقيقات كبيرة في مضمار الجغرافيا وهو أبو عبد الله الجيهاني الذي عاش في بخارى . ففي سنة ٩١٣م أصبح الوزير والحاكم الفعلي للملكة السامانية خلال عهد الملك نوح بن أحمد الذي كان لا يزال قاصراً بسبب صغر سنه . ولقد عرفنا على أثر اكتشاف مخطوط مكتبة مشهد المشهور أن الرحالة ابن فضلان قد حلَّ ضيفاً على الجيهاني . وكان الرحالة المذكور أحد أعضاء بعثة أوفدها الخليفة المقتدر الى ملك بلغار الفولغا[١٠] .

ويغلب على الظن أن المعلومات التي جمعها ابن فضلان عن بلاد الفولغا الأدنى[١١] قد استغلها الجيهاني بدوره . ولم تكن فكرة الانتحال في القرن العاشر ذميمة ومستقبحة كما هي في أيامنا هذه . إذ كثيراً ما كان المؤلفون لا يقومون بأكثر من إعادة نشر مؤلفات سابقيهم . ويؤكد أحد كبار الباحثين أن تلك هي طريقة الجيهاني تجاه مؤلف يحمل اسم مؤلف ابن خرداذبة ذاته . ويضيف الى ذلك قوله أن الجيهاني كان يستغل منصبه الرفيع « لجمع الغرباء والاستفسار منهم عن الممالك ، وعن مصادر دخلها ، وعن طرق الوصول إليها ، وطول الظل في تلك البلاد[١٢] . وكل ذلك بغية تسهيل فتح هذه الأقاليم . . . وكان الجيهاني يتكلم أحياناً عن النجوم

والهندسة . . . وتارة يصف الأصنام الهندية وغرائب السند وتارة أخرى يحصي الضرائب والعائدات » .

وتعود هذه الفقرة التي أوردناها الى المقدسي الذي كان على الرغم من تسليمه بكتابات الجيهاني كان يحتفظ بملاحظاته المبطنة التي تحمل طابع حسد المهنة . وهناك مؤلف معاصر آخر[١٣] يؤكد أن الجيهاني كان يرسل خطابات الى بلاط بيزنطة والصين والهند ليستفهم عن العادات الدارجة فيها . وقد كان هذا الفضول العلمي المستنير ـ والذي لم يكن خالياً من الغرض هو سبب ضخامة حجم مؤلف الجيهاني ، والذي كان يضم سبعة مجلدات ، وهذا بالتأكيد هو السبب الذي حال بين هذا الكتاب ، الذي يصعب تداوله بين الأيدي ، وبين وصوله إلينا . وقد كان الجيهاني يعيش في أقصى الشمال الشرقي من بلاد الإسلام ، في عصر الحركات الكبرى التي كانت تتمخض عنها أقوام آسيا الوسطى التركية ، وأنها لمهمة عظيمة الشأن أن نقوم بجمع وترميم شتات نصوص الجيهاني التي وردت في كتب مؤلفين في عصور تالية . وقد حاولت قدر استطاعتي في مؤلفاتي الحديثة[١٤] أن أجمع الوثائق عن الجيهاني لأن هذا المؤلف الذي يحتل مكان الصدارة لا يزال غير معروف بما فيه الكفاية[١٥].

لقد تكلمنا حتى الآن عن المؤلفين المتميزين الذين كان تحت تصرفهم مخطوطات هامة وهم ابن خرداذبة ـ المدير العام للبريد ـ واليعقوبي ، والجيهاني الوزير .

وسننتقل الآن الى مثال عن التعاون القائم بين بضعة علماء . فنحن لا نعرف الكثير عن المصادر والطرائق التي اعتمد عليها أبو زيد البلخي ، نسبة الى بلخ في شمالي أفغانستان ، الذي كتب صور الأقاليم حوالي العام ٩٢٠م عندما كان في سن السبعين . ولا يظهر عليه أنه كان من كبار المكتشفين . ففي مثل سنه عجز عن تلبية الدعوة الى بخارى بحجة أن رأيه الصائب يحول بينه وبين عبور نهر جيحون « سيرداريا الحالي » ، تلك الدعوة التي وجهها إليه أمير هذه البلدة للإستفادة من معرفته ، فيقول المقدسي : « وألا ترى أن صاحب خراسان استدعاه الى حضرته ليستعين به فلما بلغ جيحون كتب إليه إن كنت استدعيتني لما بلغك عن صائب رأيي فإن رأيي يمنعني من عبور هذا النهر ربما بسبب سرعة تياره ، أو أن اعتذاره يعود لأسباب سياسية ، وهناك إشارات تدل على أن كتاب البلخي لم يكن يتألف من أكثر

من خارطة للعالم الإسلامي ، والتي يعتقد أنها كانت من صنع يده . ويقول المقدسي ، هذا العالم المدقق الذي سنتكلم عنه بعد قليل ، إن البلخي كان يصوّر العالم في شكل طير كان يقع منقاره قرب مدينة السويس « القلزم » ورقبته في العراق ، وذيله في الحبشة والصين ، وعلى كل تختلف نسخ الخارطة المذكورة في التفاصيل .

وقد كان من غير المنتظر والمتوقع أن عثرنا على نسخة عن هذه الخارطة في مخطوط تم اكتشافه في الربع الأول من هذا القرن في أفغانستان . وفي مقدور القارىء بذاته أن يستشف حذق المؤلف وأن يتعرف على صدق المقدسي .

أما بالنسبة لما تبقى فكل ما نعرفه أن الاصطخري قد أتم عمل البلخي بعد أن أضاف إليه الكثير من المعلومات ، وعلى الخصوص من إقليم فارس الكبير ، في بلاد العجم ، الذي كان موطنه الأصلي ، وعن الهند الشمالية « الباكستان » وعن خوزستان . وقد ألف الأصطخري كتابه باللغة العربية ولكن هناك العديد من الترجمات عنها بالفارسية ، مثل مخطوط كابل الذي سبق ذكره ، وقد سمح الأصطخري ذاته لعالم ثالث ، هو ابن حوقل ، بأن يعيد النظر بكتابه وأن ينقحه فيما بعد . وقد كان ابن حوقل عربياً من نصيبين ورحالة لا يكل ولا يمل ، وكانت مساهماته الشخصية تتركز بشكل رئيسي على الشطر الغربي من العالم الإسلامي الذي كان يعرفه بصورة جيدة . وقد نشر المستشرق الهولندي كرامر ، قبيل الحرب العالمية الثانية طبعة ثانية من كتاب ابن حوقل والذي يشتمل على وصف عجيب لجزيرة صقلية . هذا كما قام كرامر ، الذي كان أحد أعوان الأمير يوسف كمال ، بتلخيص العمل المتضافر الذي قام به البلخي والاصطخري وابن حوقل مع توضيحه بخرائط مساعدة . ويظهر العالم الإسلامي ، في هذا المؤلف ، مقسوماً الى عشرين إقليماً ، ولكن ليس في المعنى ذاته الذي يمنحه اليونانيون بعبارة كليما . فقد كانت الأقاليم السبعة بالنسبة للإغريق وللجغرافيين العرب الذين تأثروا بهم عبارة عن نطاقات متحدة المركز موازية لخط الإستواء وتبتعد عنه بمسافات متساوية . أما بالنسبة لمؤلفات البلخي والاصطخري وابن حوقل فالأقاليم هي عبارة عن مناطق صرفة تتعاقب ممتدة من الشرق الى الغرب ، وقد تم وصف كل من هذه الرقع الأرضية حسب مميزاتها الطبيعية : مدن ، طرق ، منتجات الأرض وتفصيلات أخرى عجيبة وصحيحة ، بشكل مستفيض للغاية[١٦].

هذا وأسمح لنفسي ، عند اختتام كلامي هنا عن التعاون بين الجغرافيين الثلاثة ، أي البلخي والاصطخري وابن حوقل ، بالتوقف برهة من الوقت ، للتأمل في الخارطة التي عثرت عليها في عام ١٩٤٨ والمستوحاة من نص البلخي ، وقد صورتها من مخطوط المتحف البريطاني ، والتي كانت مطابقة ، كما أسلفت ، لمخطوط كابل .

واستناداً الى الدلائل التي بحوزتنا فإن البلخي قد مثّل العالم على شكل طير . ويظهر للقارىء أن هذا الرسم يتخذ تماماً الشكل المذكور . وقد قام الناسخون بإضافة بعض التخيلات المبتدعة إليه ولكن الفكرة ظلت واضحة . وهنا لابد لنا من أن نلفت النظر الى أن الخرائط الإسلامية تكون موجّهة عادة بحيث يكون الجنوب في الأعلى والشمال في الأسفل .

ويجب أن ننطلق من ذيل الطير الذي ينطبق على منابع النيل الشهيرة المندفعة من جبل القمر والتي اقتبس العرب فكرتها من بطليموس . ومن ثم نرى النيل وهو يصب في البحر المتوسط . أما النهر الذي ينطلق من البحر المذكور فيرمز الى مضيقي الدردنيل والبوسفور ولكن هناك نوعاً من خطأ يجعل رأس الطير يمثل البحر الأسود وبحر الخزر في الوقت نفسه ، لأن البحر الصغير الدائري الواقع الى الشرق قليلاً هو بحر آرال ، والذي نرى نهري آسيا الوسطى الكبيرين يتجهان إليه ، وهما نهر آموداريا وسيرداريا « جيحون وسيحون » .

ويظهر البحر الأبيض المتوسط « بحر الروم » منفصلاً ببرزخ ، هو برزخ السويس ، عن بحر كبير نجد فيه بضع جزر . ويتألف هذا البحر من اندماج البحر الأحمر مع المحيط الهندي . وقد سبق لبطليموس أن أشار الى كروية الأرض ، ويبدو أن فكرة الرسام توحي بأن البحر الكبير الشرقي يحيط بالقسم اللامرئي من الأرض كي يلتحق بالبحر المتوسط ، فيما بعد ، من الجانب الغربي . وهكذا يؤلف هذان البحران ، بصورة غير منتظرة ، ذلك البحر الذي يطيف بالأرض ، أو البحر المحيط عند الجغرافيين المسلمين .

وقد كان تمثيل الأرض على شكل دائرة لا يخلو من صعوبات كبرى . ولهذا السبب كانت محاولة البلخي الأولى ساذجة ومشحونة بالأخطاء . ونظراً للأهمية التي

تحتلها مصر والبحر الأبيض المتوسط في هذه الخارطة فإني أعتقد شخصياً بأن البلخي كان يستعين بمخطط أمامه يستند على معلومات بطليموسية .

وعلى كل حال فإن تمثيل العالم على شكل طير هو تجريد غريب وممتع ، وقد قدمت الفكرة الرائدة عنه . واستأنف موضوع بحثي بعد هذا الاستطراء الكارتوغرافي .

ويظهر ابن حوقل بين سائر الجغرافيين ، الذين سردنا أسماءهم وأعمالهم ، هو الذي قام بفضل إضافته الجلية والصريحة بتعريفنا برحلاته الشخصية . وسنتقدم الآن للكلام عن مؤلفين اثنين يحتل عنصر الاستكشاف لديهما المكانة الأولى ، ويستحقان بالتالي ، كل انتباه متميز من قبلنا .

ويأتي المسعودي في الطليعة ، وهو عربي من بغداد ، يمت بصلة النسب الى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، والممثل النموذجي لأفضل مواهب بني جنسه ، من حيث النظر الى الفضول العلمي وحب الأسفار وحيوية الملاحظة . ولم يصل إلينا من تآليفه العديدة سوى اثنين ، هما الكتاب الشهير مروج الذهب وكتاب التنبيه . ويزخر هذان الكتابان بالمعلومات ذات الأهمية الجزيلة والممتعة والتي جمعها المسعودي خلال أسفاره . ولا يأخذ المسعودي على عاتقه التصدي للجغرافيين ومنافستهم ، أي الى أولئك الذين يصفون كل مدينة أو يحسبون بالتقدير كل مسافة يقطعونها ، فهو يكتب حسب أسلوب مراسل صحيفة كبرى في أيامنا والذي يجتذبه كل ما هو مستغرب ، والذي يتفحص كل ما يقع تحت بصره ، ولا تفوته فرصة الاستفسار من الشخصيات البارزة أو زيارة الذين يرددون الأقاويل والانتقادات عن مدينة ما . ونكتفي بسرد مثال واحد : ففي عام ٩١٥م « ٣٠٣هـ » كان المسعودي في البصرة التي التقى فيها بالمدعو أبا زيد السيرافي الذي كان يجمع قصص البحارة ، وقد استقى من فم أحد هؤلاء القباطنة الذين كانوا يعملون على الخطوط الكبرى رواية مفصلة عن ثورة هوانغ تشاو الشهيرة التي حدثت في الصين عام ٨٧٨م « ٢٦٥هـ » أي قبل أربعين عاماً من زيارة المسعودي للبصرة . وقد زعزت هذه الثورة أركان الامبراطورية الصينية والتي لم يتم انقاذها من هذه المحنة في آخر رمق إلاّ بعد تدخل حلفائها الأتراك . وإذا تأملنا نص المسعودي على ضوء المصادر الصينية

يصبح كل شيء واضحاً بل ويأتي نص المسعودي ليسلط الأنوار على المصادر الصينية المحلية .

وهناك رحالة كبير آخر كتب حوالي نهاية القرن العاشر الميلادي ، نهاية الرابع الهجري ، وهو المقدسي ، المولود في بيت المقدس كما تدل على ذلك كنيته . وربما كان هذا أكثر الجغرافيين المسلمين بريقاً ، لأنه لم يقنع بمعرفة مؤلفات سابقيه فحسب بل أغناها بالإضافات بعد الدراسة الميدانية استناداً الى مخطط مسبق . ويشرح في مقدمته الرائعة البرنامج المعقد خلال تحقيقاته وتحرياته . وقد ألزم نفسه بدراسة اللغات والمعتقدات الدينية في مختلف الأقطار والسلع الصادرة والواردة ، والملامح الطبيعية المتميزة ، كالأراضي المائلة للبياض ، والأراضي السمراء والرملية ، والتربة الخصبة أو الجدباء ، والاصقاع الفقيرة أو الغنية ، والأمكنة الخصيبة أو العقيمة « وذكر السباخ والصلاب والرمال ، والتلال والسهول والجبال ، والحوادير والسِماق ، والسمين منها والرقاق ، ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والجدب » .

وهكذا انطلق مرتحلاً كي يتمكن من لقاء العلماء والتحدث الى الملوك ومجالسة القضاة والدرس على الفقهاء وحضور مجالس القصّاص والمذكرين ويضيف « مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحد . وتنقلي الى الأجناد حتى عرفتها . . وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها مع ذوق الهوا ، ووزن الما ، وشدة العنا ، وبذل المال وطلب الحلال » ، « وما استعنت به على تباينه سؤل ذوي العقول من الناس ، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس ، عن الكور والأعمال التي بعدت عنها ، ولم يتقدم لي الوصول إليها ، فما وقع عليه اتفاقهم أثبته ، وما اختلفوا فيه نبذته ، ومالم يكن لي بدّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته ، وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته الى الذي ذكره ، أو قلت زعموا وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك » .

ويعود المقدسي في مكان آخر الى مغامراته ويصفها بالعبارات التالية : « وصحبت عباد لبنان وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسي بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الفرق وقطع على قوافلنا الطرق . . وعانيت حروب الروم « البيزنطيين » بالشواني وضرب النواقيس بالليالي . . ومشيت في السمائم والثلوج . . وغزوت ورابطت . . وخضعت للأحلاف ، ورميت بالبدع واتهمت

بالطمع . . ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية . . ورأيت العيارين واتبعني الأرذلون . . ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم . . ولم يبق رخصة مذهب إلاّ وقد استعملتها . . غير أني لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة وأؤخر صلاة عن وقتها بتة ، وما سرت في جادة وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فارقت القافلة وانفتلت إليها لأنظرها قديماً ، وربما اكتريت رحلاً يصحبونني وجعلت مسيري في الليل لأرجع الى رفقائي مع إضاعة الملل والهّم » .

وتساورنا الرغبة في أن نعمد الى تلطيف الانطباع الذي تفرضه الفقرات السابقة على نفوسنا ، وذلك على أثر اعتراف جوال كبير ، هو الشاعر سعدي الشيرازي الذي يقول فيه : « من يجوب الآفاق يجنح الى أن يروي الكثير من الأكاذيب » ولكن في حالة المقدسي فلدينا وعود مقدمة فضلاً عن انجازه مؤلفاً رائعاً مشحوناً بوقائع لم يسبقه إليها أحد هذا فضلاً عن دقتها » .

ولا أخفي عليكم الريبة التي حامت حول المقدسي ، ومفادها أن هذا الملاحظ الممتاز قد قام بأسفاره لحساب الفاطميين كعميل في مصلحة المخابرات وذلك في مجلس خصومهم من الخلفاء العباسيين .

وقبل الفراغ من الكلام عن أكثر مراحل الجغرافيا الإسلامية بريقاً لا أستطيع تحاشي الإغراء الذي يدفعني لأن أحدثكم عن مؤلف عزيز على قلبي . ذاك هو الكتاب الجغرافي لكاتب فارسي مجهول يحمل عنوان « حدود العالم » أو بالأحرى « مناطق العالم » . وقد جرى تدبيج هذا السِفْر في بلاط ملك صغير في بلاد أفغانستان الحالية في عام ٣٧٢هـ أو ٩٨٢م أي قبيل أن يفرغ المقدسي من تأليف كتابه ، وذلك في عاصمة البويهيين ، في بلاد فارس ، في شهر أيار « مايس من عام ٩٨٥م أو ٣٧٥هـ » .

وإذا كان لكتاب « الحدود » طابع الانتحال والتجميع فإننا لا نجد في أي كتاب آخر القدر ذاته من المعلومات عن آسيا الوسطى ولا أشك في أن هذه المعطيات قد اقتبست من كتاب الجيهاني المفقود .

هذا ولا يوجد من كتاب « الحدود » سوى مخطوط وحيد وله قصة لا تخلو من

عناصر رومانسية . فقد تم اكتشافه في بخارى في عام ١٨٧٩ « ١٢٩٧هـ » واشتهر بإسم مالكه الجنرال تومانسكي . وعلى أثر وفاة الرئيس الأكبر للمذهب البهائي ، عباس أفندي ، في مدينة عكا ، في فلسطين ، نشرت في سنة ١٩٢٤ في صحيفة باريسية نبذة عن سيرة حياة المذكور أوردت فيها اسم تومانسكي باعتباره مؤلفاً لمجموعة من المقالات حول البهائية . وتشاء الصدفة غير المتوقعة أن وقعت مقالتي في يد أرملة الجنرال تومانسكي التي كانت تقيم حينذاك في استانبول . وبادرت بالكتابة لي فوراً بواسطة الجريدة المذكورة لتقول لي أن المخطوط الثمين لا يزال في حوزتها . وفي خلال شهر واحد كان المخطوط فوق مكتبي في باريس . ولما كنت أعرف الأهمية التي يتمتع بها هذا المخطوط بالنسبة لروسيا فقد بذلت جهدي لكي أرده لموطنه الذي هو أحق به . وقد بلغ سروري أقصاه عندما قام المستشرق الروسي النابغة بارتولد بنشر صورة عنه مع مقدمة رائعة . وقد ظهر الكتاب مطبوعاً بعد وفاة بارتولد بعدة أشهر وكانت خاتمة القصة في الغرب ، إذ نُشرت الترجمة الكاملة لهذا النص في اكسفورد وشرحته سطراً فسطراً بل كلمة فكلمة . وكانت أمنيتي أن أضع بين أيدي الجمهور وصفاً كاملاً لدار الإسلام خلال القرن العاشر الميلادي أو الثالث الهجري ، وشرحه على ضوء معلوماتنا في هذه الأيام . وقد سمحت الدراسة المقارنة لمعطيات كتاب « الحدود » بتحديد مواطن القبائل التركية التي بدأت مسيرتها نحو الغرب ، والطرق البرية التي لعبت دور الوصل بين عالم الإسلام وبين الصين ، وبين آسيا الوسطى والهند ، والوضع السائد في المناطق المحاذية لأراضي دار الإسلام فضلاً عن مسائل أخرى عديدة . وسأورد لكم على سبيل المثال مفهوم « حزام الأرض » : « كاماريه زامين » بالفارسية وأقصد بها سلاسل الجبال التي تبدأ حسب كتاب « الحدود » في الهند الوسطى ، وتواكب خط سلاسل هيمالايا ، وقره كوروم ، وهندكوشن ، وسلاسل جبال فارس الجنوبية وأرمينية كي تنتهي في بلاد الشام عند مشارف مصر . ويدلنا هذا التركيب من المعارف الجغرافية على أنه كان لدى المسلمين ، قبيل العام ١٠٠٠ ميلادي « ٣٩١هـ » فكرة واضحة عن التفاصيل الجبلية في آسيا ، تفاصيل لم تتأكد منها الكشوف الأوروبية وتتحقق منها إلاّ في القرن التاسع عشر الميلادي .

ولما كان لمحاضرتي طابع تقني نوعاً ما ، ولما كان لازال من الواجب أيضاً أن أتكلم عن الجغرافيا المعروفة في الأقطار المنعزلة بعد انفصام عرى وحدة العالم الإسلامي السياسية ، فإني أترك لمحاضرتي القادمة التي سأتكلم فيها عن جهود

العرب والفرس والأتراك العثمانيين والتي سأختمها ببعض الأمثلة الملموسة والتي ستوضح الطرائق التي نتبعها حالياً في دراسة أكثر النصوص عسراً وأشدها مشقة .

وقد قمت في هذا العرض ، الموجز بالطبع ، بالإشارة الى الإسهام الذي قدمه العلماء من مختلف القوميات الإسلامية . والحقيقة ليس العلم حكراً على أحد ، وتمثل كل الجهود الرصينة الوافدة من كل الأطراف ذلك السعي الحثيث نحو المشعل الذي يؤلف الشكل الجوهري لتقدم معارفنا .

المحاضرة الثانية

لقد تكلمت لكم في محاضرتي عن أكثر المؤلفين أصالة في العصر الذي كانت لا تزال فيه البقاع الإسلامية تملك ، وذلك من الناحية النظرية على الأقل ، تماسكاً سياسياً ، وحيث كانت تلك الوحدة موائمة لأسفار المكتشفين الكبرى .

وبعد عام ١٠٠٠م أصبح لدى الجغرافيا الإسلامية عدد كبير من الوجوه الشهيرة ولكنها عوضاً عن أن تتطور ضمن تيار مدهش راحت تنقسم الى عدة فروع . وإذا كانت الطريقة التقليدية ظلت ماثلة في مؤلفات عديدة تجميعية جرى تدبيجها في الجناح الغربي من العالم الإسلامي « بلاد الشام ومصر » فإن المؤلفين كانوا عاجزين عن التحقق من الأخبار عن الأصقاع البعيدة من امبراطورية الخلافة السابقة التي راحت تنعزل على شكل امارات شبه مستقلة وممالك صغرى مستقلة .

ولا يكون تقديم مَسْرد عن هؤلاء المؤلفين الشكل الذي نتمنى عرضه في محاضرة عامة . وعليه لن أذكر سوى بعض المؤلفين الذين امتازوا بأبحاث مستقلة ، ضارباً صفحاً عن أولئك الذين استطاعوا بعد بذل جهد أقل ان ينسقوا بين المعطيات المعروفة .

ففي بداية القرن الحادي عشر ميلادي (الرابع هجري) لمع نجم أبي الريحان البيروني كجغرافي من الطراز الاول ، ومن الغريب ان هذا الموسوعي ، الذي شعر بالمتعة بعد اطلاعه على مؤلفات افلاطون والفلاسفة الهنود ، كان من سكان خيوة في اقليم خوارزم . ودون أن أنسب لنفسي الكثير من الاعتداد فقد كنت الوحيد بينكم الذي سنحت له فرصة زيارة تلك الواحة النائية في آسيا الوسطى . وفي أيام البيروني كانت اللغة الفارسية لا تزال هي السائدة فيها ، والتي تخلت عن مكانها ابتداء من القرن الرابع عشر (الثامن هجري) الى اللهجات التركية . وقد اصطحب الفاتح الكبير محمود الغزنوي معه الى عاصمته البيروني كغرامة حرب ، مثلما يحدث في أيامنا هذه ، مثلا ، من اقتياد اخصائي في المواد المشعة[١٧] .. وقام البيروني في العاصمة غزنة ، الواقعة في بلاد افغانستان الجنوبية ، بكتابة مؤلفه في الجغرافيا الرياضية وهو

«القانون المسعودي» الذي عرض فيه المواقع الفلكية لكل بلدان العالم المعروف . أما بالنسبة لبلدان الشرق الأقصى فقد استغل المعلومات التي استقاها من سفارة خيطاي Khitay التي قامت بزيارة الى غزنة . ويقصد بعبارة «خيطاي» اسرة ملوكية فريدة تعود من حيث الأصل الى منشوريا الحالية ، أو اقليم هيلونفيانغ . ولم يتم الوثوق من حقيقة أمر هذه السفارة الا منذ وقت قريب على أثر اكتشاف كتاب «طبائع الحيوان» في لندن والذي تشتمل مقدمته على عدد من التفاصيل المفيدة عن آسيا الوسطى والهند والصين . وقد قمت بنشر هذا النص العربي خلال الحرب العالمية الثانية ويشكّل الان تكملة لا غنى عنها لدراساتي حول كتاب «حدود العالم» الذي كشف لنا ، لأول مرة ، ظروف وصول سفراء أسرة خيطاي الى غزنة ، هذا كما عثرت في كتاب آخر للبيروني على اشارة مباشرة عن هذه المحادثات مع المندوبين القادمين من الشرق الاقصى ، وفي ذلك مثال هام عن المصادر التي يستقي منها الجغرافيون معلوماتهم .

أما فيما يتعلق بالكوزموغرافيا أي «المسالك والممالك» فقد ترك لنا البيروني وصفا غزيراً عن الهند ، مستندا على دراسة المصادر الهندية ، لأن هذا العالم الخوارزمي قد سبق له وتعلم اللغة السنسكريتية ، واعتمد على الابحاث التي انجزها ميدانياً . ولا نتمالك انفسنا من الاعجاب بعمق فكر البيروني وتجرده العلمي عندما يعالج فلسفات الهند ودياناتها الشديدة الاختلاف عن الاسلام .

أما معاصر البيروني ، وهو ناصر خسرو (١٠٤٥ ـ ١١٢٥ م) اي ٤٣٧ ـ ٥١٩ هـ ، فهو معروف بصورة طيبة في مصر عن طريق وصفه لعاصمة الفاطميين . فقد كان هذا الرحالة الفارسي ملاحظاً دقيقاً وشخصيا في تحقيقاته ولكنه كان على العموم ، جغرافياً رغما عنه ، بل رحالة أكثر منه مكتشفاً منهاجياً .

وجاء زحف الاتراك السلاجقة ، في القرن الحادي عشر ميلادي (الرابع هجري) ، وغزو الفرنجة الصليبيين ، الذي كان الى حد ما ، نظيراً لذلك الزحف ، أقول جاءا ليبدلا مظهر العالم الاسلامي ، وجاء المنغول في القرن الثالث عشر ليعملوا على تغيير معالم وجه الأرض بصورة جذرية أكثر .

وفي خلال عصر السلاجقة الذي شمل القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر (الرابع والخامس هجري) لم يصل الينا أي مؤلف جغرافي ولكن نستطيع أن نتخذ

مؤلف العالم المغربي الادريسي كصدى لعصر الفرنجة الصليبيين . وقد كان في وضع هذا الجغرافي المسلم العظيم تحت كنف ملك صقلية النورماندي روجر الثاني وقضاء شطر من حياته في بلاطه ، في بالرمو ، اشارة كافية لوضع رحالة المسلمين آنئذ ، وقد اشتهر كتابه «نزهة المشتاق» باسم «كتاب روجر» .

ويشكل هذا المطوّل نوعا من نص تفسيري لخارطة العالم التي جمع الادريسي عناصرها ونقشت على منضدة فضية . فقد استغلّ الادريسي ، دون ريب ، خرائط العالم الاسلامي السابقة ، ولكن أتيحت له فرصة سانحة طيبة لدراسة الاقطار المطلة على بحر الروم ، كما استطاع بفضل بحارة وعملاء متخصصين ، فضلاً عن ذلك ، أن يجمع معطيات طريفة عن انكلترة وفرنسا والاقطار البلطية ، وقد أمكن نشر الفصول المتعلقة بالبحر المتوسط بصورة غاية في الاتقان بجهود ذوي الاختصاص من فرنسيين وطليان ، كما حاول المستشرق الفنلندي ، توليو Tuulio شرح وصف بحر البلطيق ، مثلما قام عالم ألماني آخر بإعادة النظر في المعطيات المتعلقة بألمانيا ، مثلما نشر عالم بولوني الفصل العسير المتعلق بالسلاف (الصقالبة) الغربيين . أما مصادر الادريسي عن البقاع الواقعة الى الشرق من المناطق السابقة الذكر فقد كانت قاصرة بكل تأكيد ولا تزال الخرائط المتعلقة بهذا الجزء من العالم تحملُ آثار بطليموس بكل صراحة بالاضافة الى معطيات قدامى الجغرافيين العرب فضلاً عن المعلومات التي حصل عليها الادريسي ذاته . وتفتقر المعلومات المتعلقة بالأقطار الاسلامية الشرقية للأصالة كما تزخر الفصول المتعلقة بآسيا الوسطى والهند بأشكال الغموض ..

وقد أمكن اعادة تجميع خرائط الادريسي بفضل جهود عالم الخرائط الالماني ميللّر الحاذقة وأصبحت هذه الخرائط مرئية فوق جدران اكثر المؤسسات التعليمية في العالم العربي . وعلى كل حال لا يجوز الركون الى النسخ اللاتيني للاسماء التي تظهر فوق هذه المصورات . وقبل الحرب العالمية الثانية تم التخطيط لتوزيع العمل بين علماء مختلف الاقطار لنشر هذه المصورات ، غير أن أهم ما في عمل الادريسي أصبح معروفاً بما فيه الكفاية ومن المشكوك فيه ان تكون البقية حاوية على كشوف غير منتظرة .

وقد توفي الادريسي سنة ١١٦٦ م (٥٦٢ هـ) ، بيد أن معاصره الأصغر منه سنا ، وهو ابن جبير ، المولود في بلنسية بالاندلس تمكن من التجوال في أقطار البحر

الابيض المتوسط . وفضلاً عن ذلك قام بأداء فريضة الحج سنة ٤٧٨ هـ (١١٨٥م) وعاد منها مارا ببغداد . واذا كان كتابه على قدر من الأهمية فهو يفتقر الى اتساع ابعاد اسفار سابقيه .

وفي سنة ١٢٢٨ م (٦٢٦ هـ) وقبيل الاجتياح المنغولي تمّ تأليف معجم جغرافي كبير على يد ياقوت الحموي . ويظهر أن هذا الجغرافي الكبير كان من أصل رومي ، ولكنه كان أسيرا في صباه ونشأ في بلاد الشام في ظلال الاسلام . وقد كان ياقوت ذاته رحالة كبيرا ولكنه شغف حباً بالكتب الى جانب رحلاته المديدة . وكانت مكتبة مرو إحدى المكتبات الرئيسية التي استقى منها معلوماته ، وكانت مرو مدينة كبيرة في خراسان ، ولا تزال آثارها ماثلة في جمهورية تركمانستان السوفياتية . وقد كتب في مقدمة معجم البلدان : «لو لم يقع غزو مغولي . لما فارقت مرو حتى آخر يوم في حياتي . . وعندما غادرتها كانت تحوي عشر مكتبات مفتوحة الأبواب لعامة الناس . . . وكان في مسجدها الجامع مكتبتان كانت إحداهما تضم ١٢٠٠٠ مجلداً . . . وكان من الميسور الوصول اليها ، وكان لديّ في منزلي على الدوام ٢٠٠ مجلد وربما اكثر من ذلك ، والتي لم يكن يسأل أحد عنها أي رهن ، هذا مع أن قيمتها كانت تتجاوز ٢٠٠ دينار (ذهب) . وكنت استمتع بقراءتها وكان يجعلني هذا الشغف بالكتب أنسى كل البلدان ، وحتى أسرتي وأولادي » . ويستحق معجم ياقوت منا كل إطراء . وقد كان نشره على يد ويستنفيلد حدثا كبيرا في مجال دراساتنا ، وإذا استثنينا الفهارس المألوفة التي تشكل مجلداً قائماً بذاته ، فإننا نملك الآن دراسة خاصة وجزيلة الفوائد في المواضيع غير الجغرافية التي نجدها في معجم ياقوت أنجزها الدكتور ريشر Rescher . وعلى سبيل الطرافة يمكننا أن نضيف الى ذلك أن نصاً واحدا في معجم ياقوت ، يتعلق بمنابع نهر دجلة ، استخدمه العالم الالماني الكبير ج . ماركار كموضوع لكتاب يتألف من ٦٠٠ صفحة .

هذا ويعود كتاب «عجائب المخلوقات» أو كوزموغرافية زكريا القزويني المدون باللغة العربية لبداية الهيمنة المنغولية . ويحتفظ قسمه الجغرافي بأهميته فقط بالنسبة لبعض النصوص المقتبسة من مصدرين أو ثلاثة مفقودة حاليا . ولكن الكتاب الأكثر أهمية هو مؤلف حمد الله القزويني الذي كان من مواطني زكريا ولكنه كتب بالفارسية . وقد كان حمد الله موظفا في مصلحة الضرائب «مستوفي» ويحمل كتابه تاريخ ١٣٤٠ م (٧٤١ هـ) أي في العصر الذي توطّد فيه الحكم المنغولي في كل

المناطق الممتدة من منغوليا حتى آسيا الصغرى . وقد كان حمد الله مؤلفا مستقلا ، كما أن شبكة الطرق التي وضعها لم تنطلق من بغداد أبدا بل من السلطانية وهي العاصمة الوقتية للمنغول المتأخرين . وقد تصدى حمدالله لمميزات المدن وأضاف اليها العديد من المعطيات عن الضرائب وعن نظام ملكية الأراضي ، وعن أملاك الملوك الخاصة . وقد تم منذ عهد قريب تحليل هذه المعطيات غير المنشورة في مقالات هامة بقلم العالم التركي آ . ز . وليدي والعالم السوفياتي ي . بتروشيفسكي .

وأراني مضطراً لعبور بعض المراحل بإهمالي الكلام عن علماء أقل أصالة من أمثال ابي الفدا وابن سعيد اللذين عاشا في العصر المنغولي . وهناك معاصر أصغر سنا من حمدالله المستوفي ، وهو ابن بطوطة الذي غطى على زملائه العرب عن طريق مدى رحلاته . وقام الأستاذ زكي حسن ، في وقت قريب منا ، بتلخيصها في كتابه عن الرحالة العرب في القرون الوسطى ، مما سمح لي باختصار عرضي هذا . وقد ولد هذا الرحالة الشهير في طنجة عام ١٣٠٤ م (٧٠٤) هـ ومات في المغرب سنة ١٣٧٧ م (٧٧٩ هـ) . وقد سافر لأداء فريضة الحج وسنه لم يتجاوز الحادية والعشرين بعد ، فاجتاز كل الشمال الافريقي وصعيد مصر وبلاد الشام ، وزار في طريق عودته كلا من العراق وفارس والموصل . وقد تجول في رحلات اخرى ببلاد اليمن وآسيا الصغرى والدولة الذهبية ، أي بلاد المملكة التركية المنغولية التي كانت تحتل القسم الجنوبي من بلاد الروسيا الحالية . ولما كانت احدى زوجات الخان المنغولي بيزنطية فقد رغبت ان تذهب الى أهلها بقصد الوضع عندهم . ودخل ابن بطوطة القسطنطينية في حاشيتها حيث قابل الامبراطور ووالده الذي تنازل آنئذ عن العرش كي يدخل في سلك الرهبنة . وقد انطلق ابن بطوطة ، خلال رحلته هذه من استراخان عند مصب نهر الفولغا ، ومن خوارزم وهي موطن البيروني ، مارا بأفغانستان كي يبلغ الهند . وهناك شغل وظيفة قاض في دهلي أولا ثم في جزر الملديف (جزر المهل) واندفع بعدئذ من جزيرة سيلان (سرنديب وحاليا سريلانكا) كي يبلغ كانتون في الصين ليعود بعدئذ عن طريق جزيرة سومطرة . ولم تكن رحلته الأخيرة أقل أهمية من الا سفار السابقة . فقد انطلق من فاس باتجاه بلاد السودان الغربي مرورا بتومبوكتو وعاد الى موطنه مرورا بواحة آغادس . وتتصف قصة رحلاته بطابع البساطة الكبيرة التي تلامس السذاجة ، وبالصدق ولكن مما يؤسف له حقا هو أنه لم يقم بتدبيج رحلته بقلمه فقد أملاها على كاتب محترف هو ابن جزيّ الكلبي .

غير أن هذا الكاتب شوّه الى حد ما الطابع الأصيل وأدخل على النص بعض المعلومات من رحلة ابن جبير ومن مصادر مكتوبة أخرى .

ولا يزال مخطوط ابن جزي محفوظا في المكتبة الوطنية في باريس . وكان من حسن حظ هذا المؤلف ان يجد في شخص المستشرق م . ديفريمي ناشرا وشارحاً ، وللكتاب مختصرات أحدث عهداً .

وشيئا فشيئا بعد أن أصبحت الدول الاسلامية اكثر إحساسا بشخصيتها وبحدودها لم يبق هناك مجال لما يدعى «الجغرافيا الاسلامية» بل لكتب عن جغرافية مصر ، وعن تركيا ، وعن ايران ، وعن الهند . واصبحت امكانات الاستكشاف تابعة غالباً لامكانات مثل هذه الدول في عهود ملوك طموحين .

وسنصادف في حوالي نهاية العصر المنغولي ، ولكن في الجانب الآخر من العالم الاسلامي ، صنفاً آخر من الأدب الجغرافي ، ولا سيما الوجيزات في علم السياسة ، كما كانت معروفة في ذلك العصر . فقد ظهرت موسوعات الدواوين التي جرى تأليفها ، على الخصوص في مصر لخدمة الادارة لدى سلاطين من المماليك . وتعالج هذه الوجيزات مجموعة من مواد متنوعة يجدر بالموظف الكفؤ أن يعرفها ، كاختيار المداد ، والمسافة بين السطور في الوثائق الرسمية وعناوين المراسلات الخ . . ولكننا نعثر في هذه الموسوعات الثمينة على قدر لا بأس به من المعلومات العامة عن البلاد القريبة والبعيدة تمّ جمعها بواسطة تجار ولاجئين سياسين وعملاء مختصين (مخبرين) . وأكثر المؤلفات أهمية في هذا الصنف هو «مسالك الأبصار» لمؤلفه ابن فضل الله العمري . ويبدو هذا العنوان اقتباسا جديدا من العنوان القديم المسالك والممالك ولكن مع إشارة خفية الى أن خطوات السفّار لم تعد هي التي تقيس الدروب ، بل عيون الموظفين التي تتجول خلال صفحات التقارير الواردة الى الادارة الحكومية . ونورد كمثال عن تلك المواد الهامة التي نعثر عليها في كتاب العمري هاتيك القائمة التي تحوي قبائل كردستان ، والتي تشكل احدى اكثر النقاط الاستنادية اهمية في تاريخ هذا الشعب الذي ظل يثير الاهتمام حتى أيامنا هذه .

وهناك مؤلف آخر من الصنف ذاته يحمل اسم صبح الأعشى وهو طريقة

متصورة لتعيين الموظفين المتمرنين في مكاتب الدولة . وعلى كل هناك ما يرهق أبصارهم في المجلدات الاثنى عشرة التي تؤلف موسوعة القلقشندي هذه . ومع عودتنا للشرق يجب ان نتوقف الآن لنتكلم قليلا عن العمل الجغرافي الكبير الذي قام به المؤرخ حافظ آبرو في ممالك التيموريين ، والذي يعود من حيث الأصل الى اقليم كرمان وقد كتب بالفارسية . ويبدو وصفه لإقليمي فارس وخراسان الواسعين أصيلا ومفصلاً في الوقت ذاته ، ونأمل أن نرى هذا المؤلف منشورا بجهود عالم ايراني والذي سيكون عليه أن يقوم في الوقت ذاته بالتحقق والتثبت من الأسماء ميدانيا .

غير أن الجغرافيا لا تؤلف اكثر من إطار لترجمة حياة الشعراء والشخصيات الدينية ، مرتبة حسب ترتيب أمكنة ولادتهم ، وذلك في كتاب «هفت اقليم» ، اي الأقاليم السبعة لمؤلفه أمين احمد الرازي أي من الريْ قرب طهران الحالية .

ويشير كتاب الاقاليم السبعة الى النقطة التي ابتدأ عندها الانحطاط الذي شلّ تطور الأدب الجغرافي في شرق دار الاسلام ، هذا في الوقت الذي كان يبرز فيه مركز للدراسات الجغرافية في عاصمة الامبراطورية العثمانية .

ونضيف الى ما سبق ما يتعلق بارتياد العرب للبحار الجنوبية . فابتداءاً من عصر موغل في القدم كان البحارة العرب يفتنون بسحر هذه المناطق النائية التي وصفها شاعر انكليزي في بيت رائع من الشعر «بحار خطرة ضمن الفيافي الخلابة» . ولكننا لا نملك عن العصور القديمة اكثر من مجموعات قصص البحارة . وتبدو الصورة الشعبية للسندباد في «الف ليلة وليلة» بالتأكيد صدى لتفتح وانتشار عجائب الهند والصين[١٨] . وعلى كل حال فمما لا شك فيه أنه كان يوجد الى جانب الأدب الشعبي والمجتمع مؤلفات رصينة لإرشاد الملاحين . وقد اصبحنا نملك الآن ، وذلك بفضل الابحاث التي قام بها غابريال فرّان المتوفي في الاربعينات ، أقول اصبحنا نملك نصوص المرشدات الملاحية في بحار الجنوب والتي نظمها الملاح بن الملاحين أحمد بن ماجد[١٩] وتسهيلا لمهنة البحارة الذين يودون أن تكون هذه القواعد محفوظة لديهم عن ظهر قلب فقد منحها ابن ماجد شكل أراجيز . ويؤكد فرّان أن هذا البحار هو الذي عمل كقبطان لدى فاسكو دي غاما في رحلته الذائعة الصيت حول افريقيا عام ١٤٩٨ وهو بالتأكيد ايضا الذي اطلق عليه البرتغاليون لقب معلم كاناكا . أي ريس أو قبطان ، اما كلمة كاناكا فلم تكشف بعد عن أسرارها .

وهناك سليمان المهري ، نسبة الى المهرة على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب (او المحافظة الشرقية من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) وكان معاصرا لأحمد بن ماجد . وقد استفاد أمير البحر العثماني سيدي علي ريّس من مؤلفات هذين البحارين العربيين واستغلها على أوسع نطاق ، وقد كتب في هذا المجال أيضا في عام ١٥٤٥ م (٩٥٢ هـ) وذلك في العصر الذي أخذ فيه الاتراك ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، يهتمون بالبصرة وبالخليج العربي والذين كانوا يتطلعون الى العثور على منفذ الى المحيط الهندي . فقد كتب سيدي علي بدوره رواية أصيلة عن عودته من الهند برا في أعقاب الغرق الذي انتاب سفينته الخاصة . وقام زميله بيري ريس بتدبيج تعليمات ملاحية عن البحر الابيض المتوسط والتي استغل فيها عددا كبيرا من الخرائط الاوروبية من بينها واحدة تنسب الى كريستوف كولومبس مكتشف القارة الجديدة .

ومن خلال كلامنا عن أميري البحر التركيين نكون قد استأنفنا عرضنا التاريخي . فالجغرافيا تقتفي أحيانا آثار الامبراطوريات الكبرى . ففي عصر التوسع الكامل للدولة العثمانية أخذ الموسوعي التركي الذائع الصيت حاجي خليفة على عاتقه تأليف كتاب يصف فيه المنظومات الفلكية الكونية (كوزموغرافيا) والذي قام معاصر آخر بتكميله بعد وفاته والذي استفاد على نطاق واسع من الأطلس الكبير Atlas Major المنشور في هولندا وتمت مراجعة الكتاب للمرة الثانية على يد ابراهيم موتفريكا Muteferriqa وهو مَجَرِيٌّ اهتدى الى الاسلام ، وقام بنشره في عام ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ)[٢٠] . ويتألف هذا السفر من ٧٠٠ صفحة ويضم احدى واربعين خريطة تشتمل البحر الابيض المتوسط وافريقيا وآسيا حتى الصين واليابان ، وقد لفت كتاب «جيهان نوما» (كوسموراما) انتباه اوروبا الشديد منذ ظهوره . غير أن أوروبا كانت في القرن الثامن عشر قد كشفت كل الجغرافيا الشرقية واصبحت الفائدة الكبرى من الكوسموراما تنحصر في وصف الأراضي التي كان الاتراك يعرفونها بصورة جيدة كالبلقان وبلاد فارس الغربية وبلاد ما وراء القفقاس[٢١] .

هذا ويتبوأ اوليا جلبي مرتبة لا نظير لها بين الرحالة العثمانيين . وقد ولد اوليا في عام ١٦١١ وتوفي سنة ١٦٧٨ (١٠٢٠ ـ ١٠٨٩ هـ) ويبدو من خلال رحلاته أنه تجول في كل الاقطار التي كان للامبراطورية العثمانية مصلحة فيها بما في ذلك النمسا والبلقان وجنوب الروسيا . ويفتخر اولياجلبي في أنه اشترك في غارة ضمت ٤٠٠٠

تتري جاست خلال المانيا مندفعة حتى بحر الشمال . ويظهر بالطبع انه في ذلك مبالغة لأن اوليا جلبي الذي يطلق على نفسه لقب سياحي عالم لم يتردد في ان يخلط أحيانا ملاحظاته الشخصية مع حصيلة مطالعاته . وهكذا نجد مثلا في وصفه بلاد فارس أنه لا يتورع عن أن يدمج في مؤلفه مواد مستمدة من كتاب حمدالله مستوفى الذي كتب قبله بحوالي ٣٠٠ سنة . واجمالا يبدو اوليا جلبي كاتبا مليئا بالحيوية وصادقا كل الصدق في القسم الشخصي من جولاته . ويقدم وصفه لمدينة استانبول لوحة ثمينة عن العادات والتقاليد ، وعن المساجد ، وتنظيمات أرباب الحرف ، والرسم ، والموسيقى والتمثيليات المسرحية والكثير من الأمور الأخرى المثيرة للاهتمام .

وفضلا عن ذلك كان اوليا جلبي يميل الى نقل لغات الأقطار التي زارها بحروف عربية كاللغة الالبانية والاوكرانية والكرجية واللغات القوقازية ، وعند سرده قصة حملة عسكرية في كردستان يقدم لائحة مفصلة عن الكتب التي عثر عليها في حصن الزعيم الثائر في بتليس ، وفي ذلك مثال عن فضوله العلمي المستنير . وتقع رحلات اوليا في ثمانية عشر مجلدا وقد نشرت المجلدات الخمس الاولى في عهد السلطان عبد الحميد ولكن يبدو انه على أثر عمليات الحذف التي قام بها المراقبون لم يتح للمجلدات الخمس الاخيرة ان ترى النور الا في عهد مصطفى كمال أتاتورك وبالحروف اللاتينية و سيكون من الواجب المشرف للعلماء الأتراك القيام بإعادة نشر كتاب أوليا جلبي بصورة علمية وحسب مخطط منسجم ، مثلما سيقع على عاتق المستشرقين ترجمته مع شرح ضاف . وقد علمت بأن آخر فصل ، المخصص لمصر ، تجري حاليا ترجمته الى اللغة العربية وأرجو كل نجاح للمترجمين الذين سيقدمون خدمات جلى لابناء وطنهم .

وقد كان القرن السابع عشر والثامن عشر عبارة عن فترة ركود في الأقطار الاسلامية سواء في ميدان الجغرافيا او في غيرها من العلوم ، اذ راحت المؤثرات الاوروبية تتسرب الى الثقافات الشرقية وعملت على تفسّخ وتفكيك وحدتها والقضاء على أصالتها .

ولابد لنا من القول مع ذلك ـ هذا اذا ما فتشنا جيدا ـ بأن من الممكن العثور على رحالة على قدر من الأهمية . وعلى سبيل المثال سأذكر لكم اسم رحالة غير معروف كثيرا هو الحاج زين العابدين الشيرواني من شيروان جنوب القفقاس الذي

منح الأدب الفارسي عددا كبيرا من الشعراء الكتاب أمثال نظامي وخاقاني . وقد كان زين العابدين صوفيا زاهدا ، ولكنه كان على خلاف أمثاله ، فقد كان ذا بصيرة ثاقبة في علم الآثار وفي المعتقدات الشعبية والمشكلات السلالية . وقد أخذنا بالتجوال ابتداء من مطلع القرن التاسع عشر غير أن مؤلفه الرئيسي **بستان السياحة** الذي هو نوع من موسوعة جغرافية ، ادبية ودينية لم يطبع الا في عام ١٨٩٧ على شكل طباعة حجرية . ولكننا نجد الرحالة هذا متمسكا بالتقاليد القديمة عندما يذكر في معرض كلامه عن الشرق الأقصى القبائل العديدة المنحدرة من يافث وعلى الخصوص قوم ياجوج وماجوج . «الذين يكون قسم منهم قصار القامة في حين يكون جزء آخر من طوال القامة» ولكن الرحالة لا يقدم لنا على العموم انطباعاته الشخصية . الا عند الكلام عن البلاد التي تجول فيها أي من مصر الى الهند وآسيا الصغرى حتى التركستان الصينية او سيكيانغ الحالية .

أما الجغرافيون المعاصرون في بلاد الاسلام كالأمير يوسف كمال الذي نشر أطلسا رائعا عن الخرائط المصرية القديمة والمكتشفين مثل أحمد حسنين باشا ، والرحالة مثل أمين الريحاني والعلماء مثل الدكتور سليمان حزّين وزملائه فلهم اتجاه غربي في المواضيع التي يعالجونها . هذا كما جعل سندباد أيامنا حسين فوزي من رحلاته مهنة كلها ثقة نجدها لدى قراءة كتابه «السندباد القديم» . ويقلب معاصرونا صفحة جديدة في تآلف الشرق والغرب وهي مشكلة تثير اهتمامنا جميعا .

* * *

لم استطع في هذا العرض الذي قدمته بإيجاز شديد أن استكمل كل المشكلات التي تطرحها الجغرافية الاسلامية حقها . فقد كان هدفي ينحصر فقط بالتذكير بالدور الرائد الذي قام به المكتشفون المسلمون خلال القرن الثالث والرابع للهجرة اي خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد وبالتنويه بالعديد من المؤلفات الشهيرة باللغة العربية والفارسية والتركية التي تم تأليفها بين عام ٨٠٠ و ١٨٠٠م . ولو اطّلع الاوروبيون على هذه المؤلفات قبل عصر الاكتشافات الكبرى لوفروا على انفسهم الكثير من العناء ومن المناقشات العقيمة . ولا تزال الأهمية التاريخية للجغرافيا الاسلامية كبيرة الابعاد الى أيامنا هذه . فقد اختفت الكثير من الشعوب

والقبائل من المسرح التاريخي كما أن الكثير من المدن لا زال راقدا تحت أطلاله ، أو تحولت عن أمكنتها . هذا كما خضعت طرق التجارة والانظمة الاقتصادية والادارية الى تبدلات كبيرة . ولولا الجغرافيون المسلمون لبقينا في جهل مطبق تجاه امثال هذه التبدلات التاريخية ولكانت أمامنا ثغرات مؤسفة في معارفنا عن هذه الأصقاع الممتدة بين البحر المتوسط والصين ، وكذلك في قلب افريقيا وأوروبا الشرقية . ولكن ما يثير الإعجاب على الخصوص هو طريقة عمل الجغرافيين المسلمين ، ودقتهم المتناهية وموهبتهم في الملاحظة ولا سيما عندما يتعلق الامر بالجغرافيين العرب الذين كانوا يدركون بأفهامهم أهمية الوقائع التاريخية شأن أهمية المشاهد المتغيرة في عصرهم .

هذا وقد أصبحنا نملك الآن منشورات جيدة للغاية عن المؤلفات الجغرافية الرئيسية بفضل بعض المستشرقين من أمثال العالم الهولندي الكبير دي خويه وسابقيه ولاحقيه ، ولكن لا تزال ترجمتها وتفسيرها تتطلبان العديد من السنوات . وتلقي كل خطوة الى الأمام ، في هذا الموضوع نورا جديدا على العديد من النقاط التي ظلت غامضة في المنشورات السابقة .

وتتطلب الدراسات العامة كالعمل الواضح الذي أنجزه العالم ليسترانج Le Strange في كتابه بلدان الخلافة الشرقية (١٩٠٥) مراجعات دورية . وآخر عمل تركيبي من هذا النوع كان المؤلف عن بلاد فارس الذي قام به الأستاذ الألماني بول شوارز P. Schwarz وعنوانه Iran in the Mittelalter . وقد ظهر السِفْر الجليل على شكل كراسات خلال ٤٠ عاما بين ١٨٩٦ و ١٩٣٤ . وتبدو كل المصادر العمومية فيه وقد أحصيت وعرضت بشكل منهاجي . وعلى أثر وفاة الاستاذ شوارز كانت لا تزال بعض أجزاء عمله مخطوطة وقد اختفت بعد مأتمه . ولحسن الحظ تبدو أعمال المستشرق الروسي الكبير بارتولد قادرة على سدّ الثغرات من خلال دراساته في كتبه ومقالاته العديدة عن ايران الشرقية [٢٢] والمناطق المجاورة . وعلى كل حال لنتذكر أن لي سترانج خسر بصره خلال دراساته وأن عمل شوارز ظل مبتوراً وأن العمل المحموم الذي قام به بارتولد قد استنفذ قواه . وللعلم شهداؤه وهذا ما يذكرنا بضرورة تحقيق ونشر المخطوطات والدراسات في الوقت اللازم دونما تأخير أو إبطاء .

* * *

وقد أصبحت الكارتوغرافيا الاسلامية شيئا فشيئا موضوعا خاصا للأبحاث وباستطاعتنا التذكير هنا بأهمية الخرائط المدروسة والمركّبة بجهود ك. ميللّر في خرائطه العربية Mappae arabicae والأطلس التاريخي الذي أصدره الأمير يوسف كمال والذي سبق لنا الكلام عنه ودرسه العالم الهولندي ج.هـ . كرامرز .

وأخيرا فإن من المرغوب فيه ، وفي أيامنا على الخصوص ، هو الدراسة النقدية للنصوص فإذا تركنا جانبا الأوصاف البحتة في الرحلات ، كأوصاف ناصر خسرو ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، فإن كل النصوص تمثل ، دونما استثناء ، مزيجا من ملاحظات شخصية قام بها المؤلفون ووقائع مسرودة على ذمة سابقيهم .

ولدي انطباع يجعلني اعتقد ان عدد الروايات الموثوقة عن الأقطار البعيدة كان على الدوام محدودا للغاية . واذا كان النص الأصلي لرحالة ما على قدر من الطول فإن انتباه المؤلفين الذين يستشهدون به كان ينصرف نحو تفاصيل مختلفة . وعندئذ قد يتراءى ان الجمّاعين او المنتحلين قد أضافوا بعض التفاصيل غير المنشورة من بنات أفكارهم في حين تعود هذه التفاصيل في الواقع للمؤلف القديم ذاته وتعكس وصفا لم يعد له وجود . أما في الدراسات القديمة التقليدية الاغريقية فلم يعد كافيا ان تذكر استرابون ، مثلا ، دون الرجوع الى المؤلفين المتعددين الذين استمد معلوماته من تصانيفهم . فقد عانت أجيال من العلماء بكل صبر وأناة من المصاعب لإعادة ضم أكثر النصوص قدما التى اقتبست منها المختارات . ولا يمكن لمناهجنا في ميدان الدراسات الشرقية ان تختلف عن المناهج المطبقة في الدراسات الغربية .

وللتدليل على وجهة نظري عن تحليل المصادر سأسمح لنفسي أن أورد مثالا عن طريقتي الشخصية ، والمشكلة معقدة نوعا ما وسأطلب منكم لحظة من التركيز في انتباهكم .

فهناك عدة جغرافيين كالمسعودي مثلا (٩٤٣ م) يقدمون قائمة بملوك الهند بينها اسم أثار الكثير من الجدل . ويظهر هذا الاسم عادة على شكل «رهمي» أو «دهمي» . ولاعتبارات تتعلق بالقافية الخارجية اقترح العارفة الممتاز بالجغرافيا الشرقية السيرهنري يول Yule تشخيص هذا الملك بملك بلاد رامنيا التي تنطبق على منطقة في

جمهورية بورما الحالية . وقد ألمح بول ذاته الى تردده «في تعيين حدود المنطقة التي يقصدها المؤلف العربي بدقة» . ولكن جرت العادة ان يتم تبني حجة مختص كبير كشيء مطلق . غير أني عثرت في كتاب جغرافي يعود لعام ٩٨٢ م (٣٧٢ هـ) ، أعمل على دراسته ، على اسم الملك ذاته مكتوبا على شكل دهُم مما جعلني متحفظا ضد النظرية المقبولة . وبعد استمراري في ابحاثي عثرت على نص جديد آخر يشير بشكل غامض الى أن الملك المقصود كان يحكم في الهند الوسطى (بعيدا جدا عن بورما) . وعندما جمعت بعناية كل الفقرات الموازية ظهر لي تفصيل أثار دهشتي فورا ، فقد وجدت أن كاتبا من الجماعين يقول أن الملك هذا لم يكن من أصل نبيل وقد أدى ذلك فورا الى تقليص عدد الاحتمالات وهرعت كي اتفحّص قوائم الأسر المالكة الهندية واليكم ما توصّلت اليه . لقد كان هناك ملك لم يكن يذكر في نقوشه نسبة الى أجداد نبلاء ، والذي كان يحكم في اقليم البنغال والذي كان يدعى دهارما بالا Dharma Palaوعند التأمل في الخط العربي القديم فإن تماثل دهُم مع دهارما يصبح الأمر مؤكدا تماما . ولكن ظهرت قضية أخرى طرحت على بساط البحث .

ولما كان دهارما بالا يحكم في حدود العام ٨٠٠م (١٨٤هـ) فمن بواعث الإغراء محاولة التعرف على الرحالة المسئول أصلا عن ايراد ذكره . ففي المؤلف المشهور بالفهرست نجد فقرة صغيرة حول عالم أوفده وزير هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي الى الهند «لجمع نباتات طبية وكتابة تقرير عن ديانات الهند» . وكان التقرير عن داهوم (دهارما بالا) مصحوبا ، عن طريق الصدفة ، بتعداد مفصل للمذاهب الهندية مع اشارات الى المدن التي تنتج النباتات الطبية . وقد كان يحيى بن خالد حاكما فعليا للخلافة قبل عام ٨٠٠ م أي في الوقت الذي يطابق بكل دقة لحكم الملك دهارما بالا في البنغال . وبالتالي لن يبقى سوى القليل من الريب في أن الرواية عن الهند التي نجدها واردة لدى العديد من المؤلفين ، (وحتى في ألف ليلة وليلة) كانت مهيأة بناء على أمر من يحيى البرمكي . وهكذا وكنتيجة لهذا التحليل المقارن للمصادر يصبح تاريخ الرحالة الأصلي معروفا ، ومن هذا الواقع نستطيع أن نفيد تكوين الأساس التاريخي لكل التفاصيل الأخرى التي نجدها في التقرير ذاته . وفي عصر المسعودي الذي أورد اسم الملك دهارمابالا كان الملك المذكور قد فارق الحياة منذ مائة وخمسين عاما ولكنه كان مثل نور بعض النجوم الخامدة فقد كان صيت دهارما بالا لا يزال معروفا وذا اسقاطات فوق صفحات مؤلفات الجغرافيين الجمّاعين

ولتسليط المزيد من الضوء على هذه القضية فإن بمقدوري دعمها بمثال آخر اكثر بساطة . ففوق خارطة تركية تعود للقرن السادس عشر والتي تؤلف جزءا من مجموعة شستر بيتي Ch. Beatty الرائعة في دبلن ، نجد هلالا من الأراضي الى الغرب من افريقيا يمثل امريكا مثلما نجد في المحيط الهندي جزرا تجعلنا نجنح الى الظن أنها تمثل استراليا في حين تظل فيافي سيبيريا مأهولة بأقوام ياجوج ومأجوج التقليدية ، هذا في حين يجب علينا في الجغرافيا ، شأن العلوم الأخرى ، أن نأخذ دوما بعين الاعتبار الفارق الزمني بين مصادر معلوماتنا .

واختصارا نجد في الجغرافيا العربية أن راية الجغرافي المؤلف لا تستر الحمولة وشق السفن الشراعية التي كانت تدعى حمايتها ، وهكذا يكون لزاما علينا ، مثل رجال الجمارك الخبراء ، أن نفحص وأن نصنّف محتوى عنابر كل سفينة شراعية جغرافية .

هذا ولا تبدو الترجمة كافية ، لوحدها ، لدراسة جغرافي مسلم ولكن التحليل المقارن لوحده ـ هذا إذا كانت الصدفة مواتية ـ هو الذي يستطيع أن ينعش بريق اللآلىء التي نعثر عليها مختفية في النصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية .

وتلك إذن هي اللمحة الشديدة الإيجاز التي أقدمها لكم حول موضوع امتلك مني الفؤاد مع بعض الملاحظات عن مستقبل ابحاثنا . وقد حاولت تبسيط موضوعي ولكني اعترف بأن هناك حدودا لا يكون التبسيط عمليا بعد تجاوزها . وقد اختصرت العرض قدر استطاعتي ولكن موضوعا كهذا لا ينسجم مع مثل هذه العملية لأن مساهمة العرب ، أو المسلمين عموما ، تبدو ضخمة في المجال الجغرافي وقد استحقوا ، بناء على ما أنجزوه ، مكانتهم التى احتلوها عن جدارة في مجال العلم الكوني .

الهوامش

(١) محاضرتان ألقيتا في الموسم الثقافي ، في جامعة فؤاد الأول ، في قاعة الجمعية الجغرافية المصرية في ٢٦ شباط « فبراير » و ٥ مارس « آذار » ١٩٤٩ .

(٢) واسمه كلود بطليموس ، فلكي وجغرافي وعالم رياضيات عاش في القرن الثاني قبل الميلاد . ويعتقد أنه ولد في بطوليمائيس هرميو ، في صعيد مصر ، وعاش في الاسكندرية ، وهو مؤلف

كتاب قواعد الرياضيات الكبير ، أو «المجسطي» ، ويتضمن مجموعة كبيرة من المعارف الفلكية لدى الأقدمين ، وكتاب « جغرافيا » . وقد ظلا حتى نهاية العصر الوسيط بل وحتى عصر النهضة متمتعين بتقدير عظيم ، وقد تصور أن الأرض ثابتة في قلب العالم .

(٣) وهو رحالة من البندقية ولد في عام ١٢٣٤م وتوفي في عام ١٣٢٤م وقد اجتاز كل قارة آسيا بدءاً من عام ١٢٧٠م مروراً بمنغوليا ، وعاد عن طريق جزيرة سومطرة ، بعد أن قضى ١٦ عاماً في خدمة قبلان خان . ويعتبر سرد رحلاته في « كتاب عجائب العالم » أول وثيقة دقيقة عن الشرق الأقصى .

(٤) ويقول هو الموقع المركزي للأرض . وهو أهم المراكز الأربعة في كل تسعين درجة من محيطها .

(٥) نقله الى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ضمن منشورات جامعة الدول العربية ، في مجلدين ١٩٦٣ - ١٩٦٥ .

(٦) ترجمه الى العربية الأستاذ ابراهيم خوري في عام ١٩٨٢ ضمن مطبوعات وزارة الثقافة بدمشق .

(٧) منطقة في جنوب روسيا كان يسكنها السرماتيون .

(٨) ويجب ، على كل حال ، أن نلفت الأنظار لضرورة التمييز بين كوروغرافيا وبين كوريئوغرافيا والتي يقصد منها أرباب الفن والرقص في الميتؤرولوجيا الإغريقية .

(٩) مستشرق فرنسي شهير ولد في عام ١٩٠٠ وتوفي عام ١٩٨٠ وله ترجمة ممتازة لمعاني القرآن الكريمة مع التفسير في مجلديه .

(١٠) وهنا يجدر بنا أن نلفت النظر الى أنه بينما كان يجري نفي قسم من البلغار من سهوب روسيا الجنوبية نحو البلقان ، كان القسم الآخر يؤلف مملكة على نهر الفولفا حول مدينة قازان الحالية .

(١١) تعتبر رواية ابن فضلان إحدى أثمن الوثائق عن شعوب روسيا الشرقية . ولا تزال تدرس حالياً في كل المدارس الروسية . ويضم متحف موسكو لوحات تمثل مراحل تطور الشعب الروسي في معارج الحضارة اعتماداً على كتابات ابن فضلان حتى عصر الصواريخ والأقمار الصناعية . وقد تم اكتشاف النص الكامل في إيران عام ١٩٢٣ بجهود الباحث آ . ر . ف . توغان والتي كانت أساس ثلاث نشرات حديثة بالروسية « ١٩٣٦ » وفي الألمانية « ١٩٣٩ » وفي العربية على يد المرحوم سامي الدهان خلال الستينات بدمشق .

(١٢) وذلك لتحديد الوضع الفلكي للمكان المذكور .

(١٣) وهو القرديزي الذي عاش في بلاط مملكة غزنة « أفغانستان الشمالية » والذي كتب بالفارسية .

(١٤) حدود العالم « ١٩٣٧ » ، المروزي في الصين ، الأتراك والهند « ١٩٤٢ » ، والقرديزي في الهند « ١٩٤٨ » الخ . .

(١٥) انظر كتاب « اعلام الجغرافيين العرب » للمترجم . دار الفكر . دمشق . ١٩٨٣ .

(١٦) وهو ما يسمى في الجغرافيا النطاقية Zonal Geography .

(١٧) وفي ذلك كناية الى تسفير العالم الالماني فون براون ، أبي القنبلة الذرية الأمريكية ، على يد القوات الحليفة ، الى الولايات المتحدة بعد انتصارها على الألمان في نهاية عام ١٩٤٤ .

(١٨) لقد حلّل الاستاذ الدكتور سليمان حزّين في كتابه الطريف شبه جزيرة العرب والشرق الأقصى في عام ١٩٤٢ جملة من المعلومات حول العلاقات الثقافية والتجارية بين العرب والشرق الأقصى . وقدم الاستاذ سوفاجيه الفرنسي في عام ١٩٤٨ نشرة ممتازة مع شرح للنص العربي الذي نسب خلال زمن طويل للتاجر سليمان ، ولكن دون سبب مقبول .

(١٩) لقد تم نشر هذه الأراجيز على يد ابراهيم خوري ضمن منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق في ١٩٧٣ بالتعاون مع الدكتور عزت حسن .

(٢٠) وذلك في المطبعة التي أسسها في القسطنطينية لأول مرة .

(٢١) أي أذربيجان وجورجيا دار مبنية .

(٢٢) آسف العجزي عن الاشارة الى الدراسات الممتازة حول مناطق محدودة كدراسة م . ر. درشو عن سورية ، ودراسة الاستاذ تايسشتر F. Teschner عن طرق المواصلات في آسيا الصغرى والعديد من الدراسات الفرنسية عن افريقيا الشمالية الخ .

صدر من هذه النشرة

١ ـ زراعة الواحة في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية　　ترجمة الدكتور زين الدين عبد المقصود

٢ ـ اسس البحث الجمرفلوجي مع الاهتمام بالوسائل العملية المناسبة للبيئة العربية

بقلم : الدكتور طه محمد جاد والدكتور عبد الله الغنيم

٣ ـ توطين البدو في المملكة العربية السعودية (الهجر)　　ترجمة : الدكتور عبد الاله ابو عياش

٤ ـ اثر التصحر كما تظهره الخرائط　　ترجمة : الدكتور علي علي البنا

٥ ـ سكان ايران ، دراسة في التغيير الديموجرافي　　ترجمة : الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي

٦ ـ القبائل والسياسة في شرقي شبه الجزيرة العربية　　ترجمة : حسين علي اللبودي

٧ ـ سكان دولة الامارات العربية المتحدة　　بقلم : الدكتورة أمل يوسف العذبي الصباح

٨ ـ السياسات السكانية في افريقية　　ترجمة : أ.د. محمد عبد الغني سعودي

٩ ـ اثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب　　أ.د. محمد رشيد الفيل

١٠ ـ نحو تصنيف مورفولجي لمنخفضات الصحراء　　بقلم : دكتور صلاح الدين بحيري

١١ ـ مواد السطح في البحرين ـ مسح المصادر واهميته التطبيقية للتخطيط الاقليمي

ترجمة : أ.د. حسن طه نجم

١٢ ـ الطاقة والمناخ　　ترجمة الدكتور زين الدين عبد المقصود

١٣ ـ التطبيق الهندسي للخرائط الجيومورفولوجي　　بقلم : د. يحيى عيسى فرحان

١٤ ـ بعض عواقب الهجرة على التنمية الاقتصادية الريفية في الجمهورية العربية اليمنية

ترجمة : د. عبد الاله ابو عياش

١٥ ـ البعثة العلمية الى شبه جزيرة مسندم (شمال عمان)　　ترجمة : أ.د. محمود طه ابو العلا

١٦ ـ نظام النقل العام والخدمات الترويحية في الكويت　　أستاذ عبد الوهاب الهارون

د. عبد الاله ابو عياش

١٧ ـ مدن الشرق الاوسط　　ترجمة : د. محمد عبدالرحمن الشرنوبي

١٨ ـ تجارة الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث الهجريين　　بقلم : د. عطية القوصي

١٩ ـ نظرات في الفكر الجغرافي الحديث　　بقلم : د. طه محمد جاد

٢٠ ـ القوة البحرية السوفيتية　　ترجمة : أ.د. محمد عبد الغني سعودي

٢١ ـ مشكلة التصحر في العالم الاسلامي　　بقلم : د. زين الدين عبد المقصود

٢٢ ـ علم الجغرافيا دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي

بقلم : د. محمد الفرا

٢٣ ـ جغرافية الرفاه الاجتماعي عن : منهج جديد في الجغرافيا البشرية .

تعريب : د. شاكر خصباك

٢٤ ـ مكان الخليج العربي في حضارة الشرق الأدنى القديم　　تأليف : د. سليمان سعدون البدر

٢٥ ـ الاستشعار من بعد في الشرق الاوسط　　ترجمة : أ.د. علي علي البنا

٢٦ ـ الارتباط المكاني تطويره وبرمجته وجوانب من تطبيقه
تأليف : د. حرب عبد القادر الحنيطي
٢٧ ـ التطوير الحضري واستراتيجيات التخطيط في الكويت د. عبد الاله أبو عياش
٢٨ ـ دراسة تحليلية لخمس مجموعات من الاسر وفقا لتجربتهم في الهجرة
بقلم : د. عبد العزيز آل الشيخ
٢٩ ـ ضبط النسل أبعاده وآثاره الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية
بقلم : د. حسن عبد القادر صالح
٣٠ ـ الموازد في عالم متغير (وجهة نظر جغرافية) بقلم : أ.د. حسن طه نجم
٣١ ـ الجغرافيا بين العلم التطبيقي والوظيفة الاجتماعية بقلم : أ.د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي
٣٢ ـ الخصائص الجيومورفلوجية لنهر السهل الفيضي بقلم : د. طه محمد جاد
٣٣ ـ التخطيط لمدن التنمية في الكويت بقلم : د. عبد الإله أبو عياش
٣٤ ـ توطن صناعة الاسمدة الكيماوية في الوطن العربي ومستقبلها د. محمد أزهر السماك
٣٥ ـ التتابع الطباقي د. احمد مختار ابو خضرا
٣٦ ـ جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط د. عبد العال الشامي
٣٧ ـ علم الريافة عند العرب د. محمد عيسى صالحية
٣٨ ـ الهجرة اليمنية الى امريكا نموذج من دويتريت بالولايات المتحدة
ترجمة د. محمد عبدالرحمن الشرنوبي
٣٩ ـ المرحلة الثالثة من الادارة الدولية لمائية نهر النيل ترجمة د. زين الدين عبد المقصود
٤٠ ـ الصناعات البتروكيماوية في العالم العربي وامكانيات التنسيق بينها د. محمد عبد المجيد عامر
٤١ ـ التغيرات المناخية وانتاج الغذاء ترجمة : طه محمد جاد
٤٢ ـ النظام الايكولوجي وجهة نظر جغرافية بقلم الدكتور زين الدين عبد المقصود
٤٣ ـ الخصائص الشكلية ودلالاتها الجيومورفولوجية د. حسن رمضان سلامة
٤٤ ـ المدينة والخدمات الهاتفية ترجمة وتعليق : الدكتور محمد اسماعيل الشيخ
٤٥ ـ نبذة عن تطور جزيرة بوبيان الكويتية في اواخر عصر الهولوسين
الدكتورة طيبة عبد المحسن العصفور ترجمة دكتور زين الدين عبد المقصود غنيمي
٤٦ ـ التوزيع المكاني لاحتياطيات النقد العالمية ترجمة : أ.د. حسن طه نجم
٤٧ ـ خريطة مورفولوجية لاقليم خور العديد : شبه جزيرة قطر. د. نبيل سيد امبابي
٤٨ ـ مشاهدات جغرافية في غربي الجزيرة العربية بقلم : أ.د. يوسف أبو الحجاج
٤٩ – إتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر. أ. د. محمد على عمر الفرا
٥٠ – رصد الظواهر الأرضية والميتيورولوجية بالأقمار الصناعية تعرب : الدكتور محمد اسماعيل الشيخ
٥١ – السكان في اليمن. د. عباس فاضل السعدي
٥٢ – الزراعة في دولة الامارات العربية المتحدة ترجمة : أ.د. فؤاد محمد الصقار

٥٣ – مظاهر الضعف الصخري وآثارها الجيومورفولوجية	د. حسن رمضان سلامة
٥٤ – الجمرفلوجية : مجالها ومقياس الدراسة فيها وعلاقاتها بالعلوم الأخرى .	د. طه محمد جاد
٥٥ – المصادر العربية لمصطلحات الأشكال الأرضية	د. عبد الله يوسف الغنيم
٥٦ – الأقمار الصناعية والمناخ	ترجمة/د. محمد اسماعيل الشيخ
٥٧ – مدينة العقبة الموقع ومعطيات السكان الطبيعية	د. أحمد حسن ابراهيم
٥٨ – إمكانيات التنمية الزراعية في سيناء	د. فوزية محمود صادق
٥٩ – المستوطنات التوابع في الطرف الغربي لجبال نابلس	تعريب وعرض وتعليق د. فاطمة العبد الرزاق
٦٠ – التخطيط اررراعي لمنطقة الوفرة	أ. د. محمد رشيد الفيل د. صبحي المطوع
٦١ – أثر الحرارة المتجمعة على نمو ونضوج المحاصيل الزراعية في العراق	د. علي حسين الشلش
٦٢ – التفسير الشرعي للتمدن	د. وليد المنيس
٦٣ – جيمورفولوجية الهوات في الجبل الأخضر	د. سميح عودة
٦٤ – زحف الرمال بمنطقة الإحساء	يحيى أبو الخير
٦٥ – الحالة العامة للمساكن التي يعيش فيها الحاج بمدينة مكة المكرمة خلال فترة الحج	غازي مكي
٦٦ ـ الهجرة بين النواة ومناطق الأطراف	ترجمة : أ.د. أحمد اسماعيل
٦٧ ـ التعدادات السكانية الحديثة : دراسة تطبيقية على دول الخليج العربي	د . أمل العذبي الصباح
٦٨ ـ البيئة عاملية للمدينة العربية	خالد محمد العنقري
٦٩ ـ أضواء على مفاهيم الجغرافيا الاجتماعية والحضارية « الاجتحضارية » ـ دراسة في الفكر الجغرافي ـ	د . عبد الله على الصنيع
٧٠ ـ التغلغل البحري في ساحل القطري	د . نبيل سيد امبابي
٧١ ـ الجغرافيا والتخطيط	د . عبد الإله أبو عياش
٧٢ ـ بعض مظاهر التعميم والتقريب في جمع البيانات الجيمرفلوجية وعليها	د . طه محمد جاد